مخاطر سينيمائية :
١ ـ منطقة الغسق

كان مقدَّرا أن تأتى النهاية مُبْهِجة سعيدة تُختتم بها حلقات المسلسل السينيمائى ـ التليفزيونى الذى بدأت فى إنتاجه منذ فترة طويلة شركة « إخوان وارنر » الأمريكية بعنوان : « منطقة الغَسَق » - Twilight Zone ، لولا وقوع هذه المأساة .

يدور موضوع المسلسل حول المواقف والمعارك الأمريكية فى فيتنام فى سنوات الستينيات ، ومحاولة « الإيهام » بأنها لم تَخْل من لمسات إنسانية رحيمة !!

كان بطل الحلقات الممثل « فيك مورو » يؤدى دور رجل أبيض (غربى أمريكى) متعصب متطرف ، مغالٍ فى عدائه وإيذائه للفيتناميين ، ثم ينتهى به الأمر ـ بعد أحداث طويلة متشابكة ـ إلى التوبة والندم ، و «يَكْتشف» أنه كان خاطىء الفهم، منحرف السبيل . لذلك ، كان المشهد الأخير كالآتى : مع غَبَش الليل ، أى وقت الغَسق ، فى منطقة فيتنامية معرَّضة لهجوم أمريكى ، يسرع بطل الحلقات (فيك) بانتشال صبييْن فيتناميْن بعيدا عن مَرْمَى قذائف طائرة هليكوبتر أمريكية ، ويقفز بهما فى نهر مجاور ، ويْسبح ـ مغالبا التيار ـ حتى يصل بهما إلى الضفة الأخرى بسلام وأمان، فيقول لهما بلهجة واثقة مؤكدة : « لسوف أحافظ على سلامتكما أيها الصغيران. هذا وعد منِّى . لن يَمسْسكما أحد بسوء بعد الآن ، وأُقسم بالله على ذلك».

لكن تشاء الأقدار ـ وللأقدار حِكم وأحكام ـ ألاَّ يصوِّر (فيك) هذا المشهد ، ولا ينطق بتلك الكلمات الخادعات .

بدأ تصوير المشهد فى الساعة الثانية والنصف بعد ظهر يوم الثالث والعشرين من يوليو ١٩٨٢ ، حيث جرى تصوير اللقطات الحربية التى استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل ، فى ساحة فسيحة لسباق الدراجات النارية (الموتوسيكلات) على بعد نحو أربعين ميلا شمال مدينة لوس أنجلس .

أقبلت الطائرة الهليكوبتر ، وأخذ مكانه كلٌّ من البطل والغلامين المذعورين ، وتولى خبير المفرقات تفجير القذائف ، ودارت الكاميرات تصوّر فى جو المعركة والهروب إلى النهر المجاور . لكن يبدو أن عبوة إحدى المتفجرات كانت أكبر مما يجب لخطأ فى التقدير ، فأصابت الهليكوبتر ، فتأرجحت لولبيا ، وفقدت توازنها ،ثم هَوَت لتسحق أحد الغلامين ـ ويُدعى : رِنى شين ، وعمره ست سنوات ـ وهو يجرى ويصرخ مذعورا نحو النهر ، ثم انكسر الذراع الرئيسى لمروحة الطائرة ، ومَرَق بسرعة رهيبة مطيحا فى طريقه برأس البطل (فيك مورو) ،وبرأس الغلام الثانى «ميكا دِنْه » ـ عمره سبع سنوات ـ ثم تنقضُّ عليهما كتلة ضخمة من النيران . حدث هذا المشهد الحقيقى المروع أمام نحو مائة من الممثلين ، وفريق التصوير ،والفنيين ، وعدد من الزائرين . ولأول مرة فى تاريخ هوليوود يُقتل أطفال فى أثناء التصوير !

توقف العمل فى المسلسل المقدر له عشرة ملايين دولار ، وهو من إخراج « ستفن سبيلبرج »، إلى أن تنتهى وكالة الطيران الفدرالية ، وهيئة سلامة الطيران المدنى من تحقيقاتهما فى الحادث .

وُجِّه الاتهام إلى مخرج الأجزاء (أو المشاهد) الحربية فى المسلسل « جون لانديس » ومساعديه ، بالخروج على القانون السائد فى الولاية ، والذى يقضى بعدم تشغيل الأطفال بعد السابعة مساء . واعترف المسئولون عن إنتاج المسلسل بتحملهم تلك المخالفة القانونية . ومع ذلك ، لم يقروا بأن الحادث المروع كان من الممكن تلافيه ، وبأن « جون لانديس » تَعَمد تعريض الممثلين الثلاثة (البطل

والغلامين) للتهلُكة ، بأن أمَر الطائرة الهليكوبتر بالتحليق على ارتفاع منخفض وخطر .

بعد خمسة أشهر من وقوع الحادث ، صرح « لانديس » فى أول مقابلة إعلامية معه، بأن إشاراته إلى « فيك مورو » بالاستمرار فى الإسراع بالجرى ، أخطأ مساعدوه فى فهمها ، فظنوا أنها إشارة إلى ملاح الطائرة بطلب الهبوط . ثم أضاف فى تصريحه : «لقد كانت قوة الانفجارات أكبر وأوسع مدى من توقعات أى شخص فى فريق العمل » .

فى شهر مايو التالى طلب مكتب نيابة المنطقة من هيئة المحلَّفين سماع الأقوال المتعلقة بالحادث لتحديد المسئول عنه . ووقِّعت غرامة مقدارها ١٠٠٠٠٠ دولار على كل من « جون لانديس » ، و « سبيلبرج » ، و « اخوان وارنر » ، لانتهاك قوانين حماية الأطفال والمحافظة على سلامتهم . وطالب والد أحد الغلامين القتيلين بتعويض قدره ٢٠٠ مليون دولار من المسئولين عن إنتاج الفيلم (هذا الجزء من المسلسل) .

فى اليوم الذى أذيعت فيه حلقة « منطقة الغَسَق » بعد حذف المشهد الذى وقَعت فيه الكارثة ، أصدرت هيئة المحلَّفين بالمحكمة التى تنظر القضية ، قرارها بإدانة «لانديس » ، ومساعد الإنتاج « جورج فونْسى » ، ومدير وحدة الإنتاج « دان أللنجهام » ، ومساعد المؤثرات الخاصة « بول ستيورات » ، وملاح الطائرة الهليكوبتر « دورسى وينْجو »، بتهمه القتل غير العَمْد . فإذا حكمت المحكمة بثبات تلك التهمة عليهم ، فإن مصيرهم سيكون إلى السجن لمدة ست سنوات . ولم يحدث قط فى تاريخ السينيما أن حُكم على مخرج بتهمة تسببه فى مقتل شخص فى أثناء التصوير .

طالت إجراءات التحقيق ومناورات المحامين إلى نحو ثلاث سنوات . ومثّلت

النيابة العامة «لِيا بورْوِين داجُوستينو » التى عنَّفت المتَّهَمين بشدة ـ فى جلسة ٢٢ يوليو ١٩٨٦ ـ وألقت اللوم على مُنتجى الأفلام « الذين لا يهتمون إلا بنجاح الإيرادات وحصيلة شباك بيع التذاكر » ، وانتقدت تهوُّر بعض المخرجين باسم الواقعية . وأثبتت اندفاع المخرج « جون لانْديس » فى أثناء العمل إلى حد الحماقة والهَوَس ، حتى إن البعض أطلق عليه تعبير : « المخرج المستبد » .

تولى الدفاع مجموعة من المحامين على رأسهم « جيمس نيل » الذى كان يشغل من قبل منصب المدعى العام فى قضية ووترجيت (التى كانت سببا فى استقالة رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق ريتشارد نيكسون ، لعلمه بوضع رجال من حزبه أجهزة تنصُّت وتجسس فى مقر الحزب المنافس ، وتستره عليهم ، وإنكاره – كذبا – ما فعلوا) . دافع « جيمس نيل » عن المتهمين بحُجة أن الحادث لم يكن متوقَّعا ، وأنه وقع نتيجة تعجُّل العامل الفنى المكلف بإطلاق التفجير وإلقاء القذائف. وكان طبيعيا أن ينفى هذا العامل الفنى (ويدعى : جيمس كومونيل) عن نفسه هذا الاتهام. واستغرق استجواب المخرج « لانديس » أمام هيئة المحكمة ثلاثة أيام ، حوصر بعشرات الأسئلة ، وبعدد من الشهود . وتحت ضغط الموقف ، اعترف بأنه لو أعاد إخراج هذا المشهد فإنه « بالتأكيد لن يصوِّره كما حدث ، وبأسلوب مختلف » .

بعد أشهر عشرة من المحاكمة ، وسماع أكثر من تسعين شاهدا ، ومئات الساعات التى انقضت فى الاستجوابات والمرافعات ، حوِّلت القضية إلى هيئة المحلَّفين (تسمى أيضا : هيئة الحكم) فى ١٨ مايو ١٩٨٧ . وبعد جولة واحدة من الاقتراع السرى ، أصدرت الهيئة قرارها بأن المتَّهمين ليسوا مذنبين فى جميع ما وُجِّه إليهم . وجاء فى هذا القرار : « إننا نعتقد أن كل ما حَدَث كان غير متوقَّع ولم يكن فى

الحُسبان » . وقال رئيس هيئة المحلفين : « إنكم لا تقتصون من الناس بسبب حوادث غير منتظَرة ولا مقدَّرة » . وعاب المحلَّفون على الادعاء (النيابة) قصورا فى توضيح كيف كان يمكن تجنب وقوع الحادث، وأن هذا الحشد من الشهود كان يردد أقوالا متكررة بعينها ، ولم يكن مُقْنِعا .

فى شهر فبراير التالى ، أصدرت « نقابة مخرجى أمريكا » قرارا بتوجيه اللوم إلى «لانديس » ، و « أللنجهام » ، واثنين من المساعدين ، لسلوكهم « غير المنضبط » الذى زامن مقتل الممثلين الثلاثة. أما القضية المدنية التى رفعتْها أسرتا الغلامين الفيتناميين، فقد انتهت إلى تسوية بالتراضى ، ودفعت الشركة المنتجة مليونيْـن من الدولارات لكل أسرة .

الشىء الإيجابى ، أو الكسب الحقيقى من وراء تلك الكارثة ، هو صدور تعهد جديد من جانب هوليوود بتحقيق كل ضمانات السلامة والأمان فى مواقع الإنتاج والتصوير . وتكوَّنت لجنة لتضع شروطا لضمان السلامة تضاف إلى عقود الممثلين والمخرجين .

أما الشىء المزعج ، فكان من نصيب المخرج « جون لانديس » . فقد لاحقه النقاد فى الصحف ووسائل الإعلام ، بعد فشل مسلسل « منطقة الغسق » فى جذب الجمهور ، وإظهار استطلاعات الرأى هبوط مستواه ، وكتب ناقد سينيمائى يقول : «إن القصة سيئة الإخراج ، ولم تكن تستحق الموت من أجلها » . فلما أعرضت ستديوهات الإنتاج السينيمائى عن « لانديس » ـ وكان مخرجا ناجحا مُدِرا للأموال – اتجه إلى الإخراج التليفزيونى . وفى مقابلة معه سنة ١٩٩١، قال : « إننى أعيش مع (منطقة الغَسق) كل يوم من حياتى » !

* * *